

مع الدعاء في الشهر الكريم (فلسفته وعلاقته بالحياة)



في شهر رمضان، نلتقي بالدعاء كأحد شعائر العبادة التي أرادها الإسلام - في هذه الشهر - لنشارك في خلق الأجواء الروحية التي يبني فيها الإنسان شخصيته بين يدي الله.

وقد كان الدعاء - في شرائع السماء القديمة - صلاة المؤمنين، تربطهم بالله من دون أن يصاحبها شيء مما تعارفنا عليه الآن، حتى ارتبطت كلمة الصلاة بمفهومه في اللغة العربية.

ولسنا هنا لنؤرخ للدعاء أو لنبحث مواسمه، بل نحن هنا في محاولة سريعة للتعرف على فلسفته من جهة، وعلاقته بحياتنا من جهة أخرى، لنخرج من كل ذلك بالفكرة التي تربط العبادة بالحياة عندما تربط الحياة بالله.

في بداية الحديث عن فلسفة الدعاء نجد أن الله يلبي في الإنسان حاجات طبيعية ذاتية، كما يستجيب لدوافع تربوية وإيمانية، وهذا ما سنراه في ما يأتي من حديث.

- الحاجة الطبيعية:

إن "الدعاء حاجة ذاتية طبيعية للإنسان المؤمن بالله، يحس بها في داخله تماماً كما يحس بلذعة الجوع عند حاجته إلى الطعام، وحرارة العطش عن حاجته إلى الماء، فهو جوع الإنسان للحنان وللسلام الذي يملأ

قلبه بالحياة وروحه بالنور.

فهناك حالات يشعر الإنسان فيها - أمام قسوة الحياة، وضغط المشاكل وتراكم الأزمات الداخلية والخارجية - أنَّه بحاجة إلى التعبير عن الآلام التي تمزق ذاته، والمشاعر التي تجيش في نفسه، من دون أن يجرح كبريائه أو يهدر كرامته.

وهنا يأتي دور الدعاء الذي يسمح للإنسان بأن يتنفس بكرامة ومحبة وللروح أن تنطلق بعزة وحنان، فيفتح قلب الإنسان على ربه، وينطلق بروحه إلى الله حيث السلام والطمأنينة، والحياة الواعدة الرضية المطمئنة التي تجعل الإنسان يغفو على هدهدات الأمل، عبر لفتات الرحمة، ونبضات الرضوان. إنَّ الإنسان يتحول - آنذاك - إلى طفل في روحه؛ يعيش طفولة الروح بكل بساطتها وصفائها وعفويتها، عندما يجلس بين يدي الله في إيمان محب وديع واثق بالفوز، مطمئن للفرج.

إنَّه يبكي ويشكو ويتألم، ويطلب ويستعطف، ويلج في الطب والاستعطاف، ويمارس شتى الأساليب التي تمثل مظهر الضعف في الإنسان. ولكنه - مع ذلك - يبقى يحي بلذة هذا الضعف الذي يربطه بمصدر القوة المطلقة، ليستمد منه القوة على مواجهة عقبات الحياة.

إنَّه ضعف المخلوق أمام خالقه، الضعف الوحيد الذي يشعر معه الضعيف بالاعتزاز، والزهو بضعفه عندما يقف أمام القوي.

وهكذا كان الدعاء، عامل تجديد لقوة الحياة في الإنسان، لئلا يختنق بين قسوة مشاكله وضغط كبريائه، فيتحول إلى إنسان منهار أو معقد.

- الاعتراف الإيجابي:

قد يستسلم الإنسان في حياته إلى رغبة ملحة تضغط عليه، وتدفعه تحت عبء الضمير المنقل إلى الإعتراف بنواياه السيئة، وأفعاله الشريرة، وخطئه الشيطانية تجاه نفسه وتجاه الآخرين كوسيلة من وسائل تجسيد الإحساس بالذنب في داخل النفس، ليتعاطم بذلك الشعور بالندم.

وهنا يقف الإنسان بين الإعتراف للخالق، وبين الإعتراف للمخلوق.

ويأتي دور الدعاء ليحقق للإنسان اختيار الاعتراف في لعدة أسباب:

أ. إنَّه باعترافه لا يكشف سره لأحد؛ فهو مع الله مكشوف بكل أعماله ونواياه، فلا يزيده الاعتراف انكشافاً أمام من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، بينما يمثل الإعتراف للمخلوقين انسحاق شخصيته أمام افتضاح سره.

ب. إنَّ الغاية من الإعتراف هي الوصول إلى تصحيح الخطأ وفتح صفحة جديدة، وهذا ما يكفله الدعاء الذي يمثل الإعتراف الذي هو الملاذ والمرجع للمغفرة والعفو والرضوان. أما الإنسان - أي إنسان كان - فلا يملك أي شيء من هذا، حتى الأنبياء والأوصياء الذين لا يملكون الشفاعة إلا لمن ارتضى الله، ولهذا فلا يحقق الإعتراف للإنسان أي هدف.

ت. إنّه باعترافه □ أقدر على تحليل ذاته، ودوافعه، وتفصيل أعماله وأحواله، بكل جوانبها ومظاهرها، لأنّه يشعر بحرية الإعتراف بعيداً عن الملابس الذاتية والاجتماعية، بينما يشعر الإنسان أمام الإنسان الآخر بكثير من الملابس التي تحول بينه وبين الافاضة بكل شيء، مما قد لا يتحمل الآخر سماعه أو لا يرضى المعترف بإظهاره لأحد.

ث. تحقيق عملية النقد الذاتي بشكل أفضل، فالإنسان يشعر - مع الدعاء - بأنّ إرادة التغيير نابعة من داخل الذات، لا من ضغوطات خارجية تمارس المواعظ والنصائح والتهديدات. إنّ الدعاء يوحى للإنسان أنّّه هو - وحده - يريد أن ينقد ذاته ليغيرها إلى الأفضل. وهذا ما يجعل المهمة أكثر انسجاماً مع النفس وأكثر التقاءً بالأهداف.

وقد حفلت الأدعية المأثورة عن أئمة المسلمين بالكثير من أساليب الاعتراف التي يبرز فيها الإنسان بكل جرائمه وشروبه وخطاياہ أمام □، في محاولة للإنتلاق منها إلى عالم الفضيلة جديد.

أما الجانب الثاني من الحديث، وهو علاقة الدعاء بحياتنا العامة والخاصة، فنستطيع أن نفهمه إذا استعرضنا لمحة من الأدعية المأثورة، لنرى كيف ساهمت بالإيحاء بالمعاني الخيرة، والخروج بالدعاء عن أن يكون مجرد عبادة روحية خالصة لا ترتبط بالحياة من قريب أو بعيد، إلى عبادة تحاول أن تجعل من أجواء الروح طريقاً لتهديب أجواء المادة.

1- تحمل المسؤولية:

الشعور بالمسؤولية تجاه الجانب السلبي من تصرفات الإنسان، تماماً كما هو الجانب الإيجابي منه. وقد نلمح ذلك واضحاً في بعض فقرات دعاء الإمام زين العابدين في الإعتذار عن تبعات العباد والتقصير في حقوقهم:

"اللّٰهُمَّ" إنّني أعترز إليك من مظلوم طُلم بحضرتي فلم أنصره، ومن معروف أُسدي إليّ فلم أشكره، ومن ذي فاقة سألني فلم أُوفره، ومن عيب مؤمن ظهر لي فلم أستره، ومن كل إثم عرض لي فلم أهجره، أعترز إليك يا إلهي منهمّ اعتذار ندامة يكون واعظاً لما بين يدي من أشباههمّ".

إنّنا نجد من خلال هذه الفقرات، في الموقف السلبي تجاه حالات الظلم والحرمان والمعروف ونحوها، خطيئة ينبغي للإنسان أن يعتذر منها - كما يعتذر من سائر خطاياہ - لأنّ الموقف السلبي يتحول إلى موقف إيجابي لمصلحة الظالم ضد مصلحة المظلوم، ويؤدي إلى زهد أهل المعروف بالمعروف، وإلى غير ذلك من الحالات التي لا يجوز للإنسان أن يقف فيها موقف الحياد أو اللامبالاة في أي مظهر من مظاهر الحياة التي تتمثل في معركة الصراع بين الخير والشر.

2- استمداد العون الإلهي:

الإستعانة بالله على محاربة غريزة الظلم والاعتداء على الآخرين، بالروح نفسها التي يطلب فيها الاستعانة

به على دفع ظلامه الآخرين. وقد نلمح ذلك في فقرات متفرقة من الصحيفة السجادية:

"اللَّهُمَّ فكما كرهت لي أن أظلم فَقِنِي من أن أظلم".

"اللَّهُمَّ اكسر شهوتي عن كل مأثم، وأزور حرصي عن كل محرم، وامنعني أن أذى كل مؤمن ومؤمنة، ومسلم ومسلمة".

"ولا أظلمَنَّ وأنت مطيقٌ للدفع عني، ولا أظلمَنَّ وأنت القادر على القبض مني".

إنَّه يستعدي قدرة الله على نفسه، ويستعطفها أن تحمي الآخرين من نزوات قوته ومن نزعاته أنانيته. إنَّه يبلغ قمة السمو الإنساني عندما يرفض الظلم من نفسه كما يرفضه من الآخرين، إنسجاماً مع الفكرة التي ترفض الظلم كمبدأ من دون النظر إلى طبيعة الظالم أو شخصية المظلوم، ومع الفكرة الدينية التي تقول: "أحب لأخيك ما تحب لنفسك، واکره له ما تكره لها، فلا تظلم كما لا تحب أن تُظلم".

3- مواجهة العقد:

التركيز على حقيقة إنسانية ترى الظلم نتيجة طبيعية لعقدة ضعف، تتحكم في الظالم فتدفعه إلى التنفيس بالانتقام من المظلوم. الأمر الذي يجرد الظالم من وهم العظمة الذي يحاول أن يحيط به نفسه، ليغطي عوامل الضعف داخل نفسه. وقد نلمح ذلك في دعاء ليلة الجمعة:

"يا رب، وقد علمت أنَّه ليس في حكمك ظلم، ولا نقيمتك عجلة، وإما يعجل من يخاف الفوت، وإنما يحتاج إلى الظلم الضعيفُ، وقد تعاليت يا إلهي عن ذلك علواً كبيراً".

فالظلم لأنَّه قوي. أما الآخرون فإنَّهم يظلمون لأنَّهم يخافون الناس ويخافون الحق، فيبادرون إلى البغي والاعتداء لتغطية هذا الضعف والتمويه على الباطل.

4- روحية العطاء:

الإرتفاع بالأخلاق إلى المستوى الذي يجعلها تنطلق من داخل الإنسان عفويًا، كما هو النور من الشمس والماء من ينبوع، ومن دون مقابل، لئلا تتحول المسألة إلى مبادلة تجارية.

أن يشعر الإنسان بالجذور الأصيلة للخير تمتد في داخل نفسه، وتدفعه للخير من أجل الخير من دون تفكير في حساب الربح والخسارة على المستوى المادي، انسجاماً مع الفكرة الإسلامية التي تقول: "صلِّ من قطعك، واعفُ عمَّن ظلمك، وأعطِ من حرمك" وهذا ما نراه في دعاء مكارم الأخلاق:

"اللَّهُمَّ وسدِّدْني لأن أعارض من غشَّني بالنصح، وأجزني من هجرني بالبر وأثيبَ من حرمني بالبذل، وأكافيَ من قطعني بالصلة وأخالف من اغتابني إلى حسن الذكر، وأن أشكر الحسنة وأُغضي عن السيئة..".

5- الاندماج الروحي:

الإحياء بضرورة الاندماج الروحي بالطبقات المحرومة من الفقراء والمساكين، والتعاطف معهم كخُلُق

ذاتي، تنطلق فيه الممارسة من محبة النفس الذاتية لا من طبيعة الواجب المفروض من أعلى. ثمّ الانسجام معهم بالسيطرة الدائمة الواعية على الإنفعالات النفسية، التي تحدث للإنسان من خلال اصطدامه بإطارهم الضيق الذي يجعلهم يفقدون الكثير من أصول اللياقة واللباقة تبعاً لقسوة ظروفهم وخشونة واقعهم. وهذا ما تعبر عنه هذه الفقرة من أدعية الصحيفة السجادية:

"اللّٰهُمَّ حَبِّبْ إِلَيَّ صحبة الفقراء، وَأَعِزَّنِي عَلَى صحبتهم بحسن الصبر...".

6- محاربة الكسل:

الايحاء الذاتي للمؤمن بأنّ البيئة التي يسودها الكسل، وتنتشر فيها البطالة تبعده عن الله، كما تبعده عن الحياة الجادة الهادفة، الأمر الذي ينبغي له معه أن يرفض تلك البيئة، ويتحول إلى بيئة أخرى يسودها العمل والجد والاجتهاد، كما نجده في دعاء شهر رمضان في معرض تعداد الأسباب التي تبعد عن الله:

"أو لعلك رأيتني آلف مجالس البطالين فبيني وبينهم خليتني...".

7- مكارم الأخلاق:

التركيز على تغيير الانحراف في أخلاق الإنسان، سواء أكان الانحراف في داخل النية، فيتمثل في التغيير في تحولها إلى نبات طيبة، أم كان في طبيعة الكلمة فيتمثل في تحويلها إلى كلمات خيرة، أم في طبيعة العلاقات الإنسانية التي تركز على الرغبة والرغبة، فيتمثل في تغييرها إلى علاقات تركز على أساس الكفاءة الذاتية والقيمة الواقعية. وسنجد كل ذلك متمثلاً في دعاء مكارم الأخلاق:

"اللّٰهُمَّ واجعل ما يلقي الشيطان في روعي من التمني والتظني والحسد ذكراً لعظمتك، وتفكراً في قدرتك، وتدبيراً على عدوك، وما أجري على لساني من لفظة فحش أو هجر أو شتم عرض، أو شهادة باطل، أو اغتيال مؤمن غائب، أو سبّ حاضر، وما أشبه ذلك، نطقاً بالحمد لك، وإغراقاً في الثناء عليك، وذهاباً في تمجيدك، وشكراً لنعمتك، واعترافاً بإحسانك وإحصاءاً لمننك...".

"اللّٰهُمَّ وَصَّنْ وجهي باليسار، ولا تبذل جاهي بالإقتار، فاسترزق أهل رزقك، واستعطي شرار فأُبتلى بحمد من أعطاني وذمّ من منعني وأنت من دونهم وليّ الإعطاء والمنع".

8- التوازن الذاتي:

الإلحاح على مراقبة النوازع الداخلية في النفس، لإبقائها على طبيعة التوازن الذاتي وعدم السماح بطغيان العوامل الخارجية التي تتمثل في المدح الذي يكال للإنسان من دون حساب، وللجاه الذي يحصل عليه، أو العزة التي ينالها نتيجة أعماله وأخلاقه:

"اللّٰهُمَّ لا ترفعني في الناس درجة، إلا حططتني عند نفسي مثلها، ولا تحدث لي عزاً ظاهراً إلا أحدثت لي

9- خط الاستقامة :

الإصرار على المحافظة على الحق مع الأولياء والأعداء، وعدم الانجراف مع تيار العاطفة، في إخضاع السلوك للعواطف والأغراض الشخصية والنزعات الطارئة:

"اللهم" وارزقني التحفظ من الخطايا، والاحتباس من الزلل في الدنيا والآخرة في حال الرضى والغضب، حتى أكون بما يرد عليّ منهما بمنزلة سواء عاملاً لطاعتك، أو مؤثراً لرضاك على ما سواههما، في الأولياء والأعداء حتى يأمن عدوي من ظلمي وجوري، ويأمن وليي من ميلي وانحطاط هواي...".

وبعد.. فهذه نماذج من الأدعية الإسلامية التي لم يحاول منشئوها أن يجعلوا الإنسان يبتعد بها عن حياته، بل حاولوا أن يشددوا معها على صلته بالحياة، ويرشدوه إلى المجالات التي يستطيع أن ينتبه فيها إلى مواضع الخطأ فيصلحها، وإلى مواطن الانحراف فيصححها، وإلى زيغ النيات فيخلصها من الشوائب. الأمر الذي جعلنا نستوحي منها الفكرة التي تقول: انّ الإسلام يريد من المسلم أن لا يصرف بوجهه عن حياته حتى وهو بين يدي الله، بل يريد منه أن يندمج بالحياة بكل قوة، يجسد كل إرادات الله وكل تعاليمه التي تغدو الأرض معها جنة مصغرة، نتعلم فيها كيف نمارس نعيم الله في الدنيا، قبل أن نعيش معه في الآخرة.

وفي ختام الحديث، نريد للإنسان المسلم في هذا الشهر المبارك أن ينطلق مع هذه الأجواء التي تمثل السمو في الأخلاق والروح والفكر، ليحلّق بأجنحة الإيمان إلى المدى الذي يلتقي فيه بمعاني المحبة والتسامح والتعاون وبناء الحياة على أساس الإيمان، من أجل مواصلة السير في طريق الله، طريق الحياة الرضية المرضية الوادعة المطمئنة، التي لا تستجيب إلا للنور، ولا تنطلق إلا مع الخير، حياة الذين أنعم الله عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

المصدر: كتاب قضايانا على ضوء الإسلام